

التعليم والمتعلمون في مصر

د. يربوب العيوب المحاضر وطبيب أسنان

للأستاذ عبد الحميد فهمي مطر

العيوب العامة

وجهتنا عنايتنا في الماضي إلى نشر التعليم فقط بدليل البيان البليغ الذي نشره معالي - يرحم - وزير المعارف الحالي في أول عهده بهذه الوزارة في مايو سنة ١٩٣٨. ولقد قننا بما قننا به من نشر على أساس للنظم القديمة من غير أن نعمل عملاً جدياً في سبيل إقامة التعليم على أساس جديد وطيد سداه المبادئ التعليمية الحديثة ولجنته القومية المصرية والطابع القوي، فالرجل المتخرج في إحدى المدارس القائمة منذ نصف قرن من الزمان إذا دخلها لليوم يرى الطابع القديم بارزاً بها، والروح القديمة متأصلة فيها، والنظام القديم قائماً بين جدرانها؛ ولا يرى التغيير إلا في إحلال مدرسين وتلاميذ حديثين بدلاً من غيرهم من القدامى. وليس معنى ذلك الثبات على تقاليد قديمة مألوفة، ولكن معناه الأسف الجمود على نظم بالية معروفة؛ ومعناه كذلك أن كل مدرسة مصرية سواء أكانت في قنا أو الاسكندرية تسير على وتيرة أختها في كل شيء بدون تعديل ولا تحوير مهما بدت الشقة بينهما ومهما اختلفت ظروفهما ومهما تفاوتت بيئتهما، مما دعا المسترمان إلى القول في تقريره: «قد سبق توجيه النظر في الفصل الثاني المختص بإدارة التعليم العامة في مصر إلى خلو نظام التعليم العام من المرونة والتنوع. رأينا بعض ما ينتج من هذا الجمود من للتأخر السيئة الأثر في التربية القومية، بيد أنه يستحسن أن نعيد القول هنا بأن كل مدرسة مصرية تماثل في الوقت الحاضر كل مدرسة أخرى من درجتها كل المماثلة التي يستطاع إيجادها بواسطة اللوائح والقوانين، وبأن نظار المدارس ومدرسيها يكادون يمدون بمثابة آلات لانتفاذ ما تقرضه الإدارة الرئيسية من خطط دراسية لم يشتركوا في وضعها، ولم يؤخذ رأيهم فيها إلا في حالات

لا تكاد تذكر، وهذه الخطط تطبق تطبيقاً عاماً من الشلال إلى الاسكندرية على غمط واحد بدون أية مراعاة لمصالح التلاميذ وحاجاتهم المتنوعة، وبغض للنظر بتاتاً عما إذا كانوا من سكان الريف أو المدن وعما إذا كانوا سيحترفون في المستقبل الزراعة أو سيراولون التجارة أو الصناعة في المدن. ويجب أن نؤكد مرة أخرى أن مثل هذا النظام لا يحول فقط دون الانتفاع بجزء النظار والمدرسين الفنية ومعرفةهم للشئون المحلية في أغراض التعليم العامة، بل يمنعهم فعلاً من استخدام مواهبهم وكفاياتهم استخداماً تاماً في إدارة مدارسهم بحسب ما تقتضيه أحوال البيئة وصرامي التعليم، لأنهم مهما رأوا في المنهج العام وحطه الدراسة وعدم الملائمة لحاجات تلاميذهم الخاصة فإن واجههم يحتم عليهم أن يتبعوها اتباعاً دقيقاً. أعود فأذكر أن ليس معنى ذلك الثبات على تقاليد معينة، إذ ليس لأحدى مدارسنا القديمة تقليد معين كذلك التقاليد المرعية التي يعرفها خريجو المدارس في إنجلترا مثلاً، ويفخرون بها، ويحافظون عليها. هذا والعلم القديم الذي يشر العمل في المدارس المصرية منذ عشرين سنة ولا يزال يباشره إلى اليوم يشر بالأسف العميق بلاء جوانح نلبه مما يراه لليوم من الانحطاط العام الذي أصاب حالة التعليم فيها ومن روح التواكل والتكاسل التي عمت أرجاءها؛ وهو لا شك يشر بالأسف العميق أيضاً إذ يحس أن روح الجد والعمل من ناحية التلاميذ قد انقلبت إلى روح استهتار وقلة اكتراث وكسل يصحبها ميل شديد إلى الأخذ بأكثر نصيب من التمتع واللذة وحب الحياة الطراوة والهزل حتى حارفيهم الربون وضانوا بهم ذرعاً، واستولى اليأس من إصلاحهم على قلوب الكثيرين؛ وأصبحت الحالة لا تطاق بين جدران المدارس بسبب ما يوجد من الاستهتار والرعونة والخروج على المبادئ الأساسية المرعية بين التلميذ ومعلمه. وإن الفرضي التي تنتاب للمدارس أحياناً وبخاصة في الأسبوع الأخير من العام الدراسي من خروج على النظام والآداب وإتلاف لبعض أثاث المدرسة مما يتناول كرامتها وكرامة أساتذتها، مما يحزن له للنفس ويهلع له القلب. وهذه حال سنؤدي حتماً إلى تدهور خافي أشنع مما تقاسيه البلاد أربابنا؛ إذ تجد اليد القوية الحازمة الزادعة التي تضع الأمور في نصابها فتعيد إلى المدرسة كرامتها، وتجعل أساس الساملة بين

التقليد وأستاذه ومدرسته الاحترام الحقيقى المشوب بالمطف الأبرى يقابله فى الوقت نفسه حب بنوى . وفى هذا يقول سعادة حافظ عفيفى باشا فى كتابه على هامش السياسة « أما أسباب هذه الفوضى فى ترجع إلى عدم تنفيذ القوانين المتعلقة بنظام المدارس تنفيذاً لا استثناء فيه . وإلى تركيز كل السلطة فى وزير المعارف نفسه وإلى أخذ التلاميذ بسياسة مضطربة ، فى الشدة المتناهية أحياناً واللين التناهي أحياناً أخرى والذبذبة بين الشدة واللين فى أكثر الأحيان . الخ » وبعد كلام طويل عن تعديل القوانين بما يضمن للمطالب الحرة فى حدودها المعقولة ، وللتناظر والعلم التمتع بالاحترام الواجب قال « . . . أما أن يشير ناظر المدرسة على وزارة المعارف بأن تتخذ نحو تلميذ بالذات قراراً مميئاً فترفضه الوزارة أو تعدله فهذا هو الوسيلة لاضاعة نفوذ ناظر المدرسة . وبالتالي هو السبب لافساد النظام نهائياً فيها . . . »

فإذا كانت المدرسة قد جمدت فى نظامها فإن التقليد قد اندفع فى حريته إلى الفوضى التى لا يقرها عدل ولا نظام . وخير علاج للحالة الأخيرة هو طريق الانعاش الفردى الودى المشوب بالمطف؛ فإذا لم يجد ذلك كانت الشدة واجبة كل الوجوب . ولا بأس من استعمال العصي أحياناً بيد عاقلة حازمة كما يجرى فى كلية فنكتوريا وفى المدارس الإنجليزية للبحثة وقت اللزوم اتقاء للخروج على الآداب ودرءاً للخطر فى المستقبل، متمثلين بقول الشاعر :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم
أما السيوب الفنية العامة الأخرى بالمدارس المصرية فتلخص فيما يأتى :

أولاً : هلمى الطبقات

العامل المصرى الراغب فى التعليم الآن يجد أمامه من المدارس المختلفة المراتب والأوضاع والمزايا روضة الأطفال ، والمدرسة الإلزامية ، والمدرسة الأولية ، وفرقة تحفيظ القرآن الكريم ، والمدرسة الابتدائية ، والمهد الدينى ، والملجأ ، والمدرسة الأجنبية ، والشارع وهو أهمها الآن ، إذ نجد به من الأطفال حوالى مليون ونصف مليون ، بينما جميع المدارس السابقة الذكر لا يبلغ عدد من يؤمها اليوم للمليون عدا . فهذه المدارس للشعبية الأولى المتعددة تملأ . أول تصدع فى بناء الأمة الواحدة لأنها تخلق نظام الطبقات

المختلفة فى جسم هذه الأمة ذات الدين الواحد والمبادئ المتحدة ، واللغة الواحدة . وخلق الطبقات بين أمة حالما لا يقره دين ولا نظام ، فالديمقراطية تنفر منه كل النفور لأنه لا يمكن أن يودى إلى الاشتراك فى الميول والرغبات ، ولا يمكن أن يودى إلى الاتحاد فى الفهم العام ، وهو أساس التفاهم بين الأفراد ، فهو إذن ينزع إلى التفرقة الشاملة بين أفراد الأمة الواحدة ، ولعل قيامه بهذا الشكل السر الأول فى هذه الفرقة التى تحسبها فى ديارنا فى كل شىء ، وما دام قائماً فى هذه المدارس المتباينة التى نرى فى كل منها اختلافاً فى الطرائق والأساليب والمذاهب وطرق التفكير فإن تكون لنا وحدة متماسكة ولن نستطيع أن نخلق من أبناء النيل أمة متحدة فى الفهم والتفكير إلى غرض واحد وتعاون فى طريق واحد افا لى متى يا ترى يستمر تعليمنا عاملاً جوهرياً من عوامل التفرقة ، وخلق الطبقات المختلفة المتباينة فى الفهم ، للتنافرة فى التفكير ، مما يودى إلى النزاع الدائم المستمر الذى ينهى الله عنه بقوله « ولا تنازعوها فتنفشلوا وتذهب ربكم » ولقد كانت هذه النقطة هى الأولى التى لفت إليها نظر معالى وزير المعارف فى تقريرى الذى رفعت به إليه من مدرسة الفيوم الابتدائية فى ١٦ مارس سنة ١٩٣٦ لأنها من الأهمية بحيث يحتل المكان الأول من الإصلاح المطلوب ، فلا صيب إلى نحو تلك الفروق والتقليل من تلك النزعات المختلفة بين أفراد الشعب الواحد والتقريب بين أفهامهم إلا يجعل أساس التعليم واحداً ، ألا ترى كيف تعمل الدول المختلفة على نشر ثقافتها بين الشرقين ، وكيف تهجد نفسها ، وتنفق الطائل من أموالها فى سبيل جعل لغتها وطرق تعليمها هى السائدة حتى تتمكن من التفاهم مع تلك الشعوب .

وتفوز بكسب عطفها وتقديرها

فالتعليم هو الطريق الفعال المؤدى إلى التفاهم والتعاون ، لذلك أرى أن أساس الإصلاح هو فى التوحيد بحيث لا يوجد بيننا غير نوع واحد من المدارس يبنى على أساس واحد يسمى بالمدارس الشعبية ، تندمج فى تكوينه كل أنواع المدارس السالفة الذكر ، ويتعلم فيها أبناء النيل على السواء لا فرق فى ذلك بين غنى وفقير أو عظيم وحقير ، تتلوه بعد ذلك مراحل التعليم الأخرى المختلفة فيضم أطفالنا فى تلك المدارس الشعبية العامة بأنهم جميعاً أبناء

أو أعمال، وبأنه إنما يجيء إليها ليقضى جزءاً من وقته فيها لغير ما غرض واضح في ذهنه، اللهم إلا إعداده لأن يكون موظفاً حكومياً، وذلك يندفع في الابتعاد عن كل ما يمت إلى الحياة العملية بسبب، حتى إن بعض التلاميذ يتمجب عند ما يعلم أن المياه التي يشربها والتي تصل إلى منزله عن طريق الأنابيب أو عن طريق الترع والفتوات، ما هي إلا من مياه نهر النيل الذي يرسمه في علم الجغرافيا، فما بالك بمد هذا إذا خرج يسعى إلى الكسب في الحياة العامة؟ إنه لا شك يكون كالأعمى أو كالذي يذهب إلى ديار مجهولة لا يسلم عن أهلها وعن أعمالهم شيئاً، فيحار في أمره ويرتبك في حياته ولا يدرى ما يعمل ليكسب قوته. وهذا في الحقيقة هو السبب الأساسي في خلق المتعلمين وقعودهم عن العمل لجهلهم بأحوال بيئتهم وما يحيط بهم من ظروف وأعمال. ولو أن المدرسة لم تفصلهم انفصالاً تاماً عن الزارع والتاجر والمصانع المحيطة بهم وجعلت بينهم وبينها صلة قوية وجعلت من نفسها وحدة تشابه بيئتها لما كان ذلك للمعجز عن مواجهة الحياة. فهي إذن بمنزلة هذه تقصر في تربية التلميذ وتكوينه من الوجهتين الفعالتين التويتين: وجهة الاتصال المباشر بالمنزل، إذ الواجب يقضى بتعاونهما تعاوناً عملياً على النهوض بالتلميذ وتجهيز حاله الصحي والثقافي والخلق، ووجهة فصل التلميذ عن بيئته، وما يجري فيها من أعمال يحتاج إلى مزاوتها وممارستها في مستقبل حياته. ولقد أصبح لزاماً على المدرسة المصرية كثيراً من سائر المدارس أن توجه أكبر عنايتها إلى ذلك.

عبد الحميد نهمي مطر

التعليم والمتعلمون في مصر

أول كتاب من نوعه في مسؤولية المتعلم على التعليم الحاضر ويوضح أثر السياسة القديمة وآثار سمد زغلول فيه. ويشرح آلام المعلمين والآباء والطلبة وأعمالهم جميعاً. وبين بجلاء عيوب المدرسة المصرية وطرق إصلاحها ورسم خطة السياسة التعليمية الجديدة كما يضع حلاً لمشكلة المتعلمين.

رسم الاشتراك فيه ١٠ قروش
يرسل لمؤلفه الأستاذ عبد الحميد مطر بمدرسة حلوان الثانوية
وعتبه بمد الطبع ٢٠ قرشا

شعب واحد تسرى عليهم حالة واحدة كما هو الحال في سائر البلاد الأخرى، ولا تفضل لأحدهم على الآخر إلا بالجد والعمل والأخلاق الكريمة الفاضلة، كما نشمر جميعاً ونحن في المساجد مترابطين متوجهين إلى الله أن لا فرق بين سملوك وأمير. وكبير، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى». هذه الوحدة الشاملة والألفة العامة، هي التي يجب أن تكون الغرض الأساسي من التعليم، والتي يجب أن تكون المدرسة أول عامل على خلقها. قال دوى: «ومن مفسدات الديمقراطية أن يسمح بإنشاء طبقات مستقلة في الأمة، فإن التباين في الثروة، ووجود عدد وافر من جهة أبواب الصناعة، واحتقار العمل اليدوي والعجز عن إدارة التربية التي تمكن من التقدم في سبيل الحياة، كل ذلك يتضار على إحداث طباقة مستقلة متفرقة وتوسيع شقة الخلاف والتفريق. على أن في إمكان أبواب السياسة والتشريع أن يدفعوا شيئاً من هذه النوائل، كما أن على أهل المساهمة الخيرية للقيام بشيء من هذا الغرض للتبديل. إلا أن العامل الأكبر الأصيل في هذا السبيل هو لتنظيم المدرسي الشامل للأمة جماعاً» ثم يقول: «لا يجوز أن تكون تفرقة بين أنظمة المدارس، فلا ينبغي وجود نظام لأبناء الموسرين، وآخر لأولاد العاملين بالأجور، فإن الفصل للمادى بين الفريقين بسبب هذا التنظيم لا يتفق مع ترقية روح الأخاء المتبادل»

ثانياً — عزلة المدرسة

المدرسة المصرية معزولة عن بيئتها عزلاً تاماً، فترى للتلاميذ يدخلونها فيقطعون عن كل ما يحيط بهم من الأعمال، كما ترى المدرس أو ناظر المدرسة خصوصاً في الأقاليم يترفع عن الشعب الذي يزود المدرسة بأبنائه، ويحاول الابتعاد عن أولئك الفلاحين كأنهم من طينة أخرى غير طينته، لأنه يعتبر نفسه موظف حكومة كأمور المركز، عليه أن يحتفظ بينهم بمكاته وعلو مركزه كما يتوهم، وبذلك لا يختلط بهم، ولا يمكنه أن يعرف الأحوال الحقيقية لأبنائهم الذين بالمدرسة، ولا يستطيع أن يتعاون معهم التعاون الفعال على إصلاحهم بمعرفة قطع الضف المختلفة في تكوينهم. ثم إن التلميذ يرسخ في ذهنه الاعتقاد بأن المدرسة لاصلة لها بالحياة وما يجري فيها من زراعة أو صناعة أو تجارة